نظرة من قريب على رواية " ساق البامبو "

الرواية مقدمة من خلال ضمير المتكلم، ومن هنا فما تقدمه الرواية يجيء فى حدود ما يرى ويسمع ويفكر ويشعر به الراوى، ولعل هذه " التقنية " هى الأكثر مناسبة حين يكون الرواى هو الشخصية المحورية المستمرة عبر أزمنة وأمكنة الرواية، والتى تتفاعل إيجاباً أو سلباً مع بقية شخصيات الرواية التى لا تعرف عنها إلا ما تقوله وتفعله ، أو يقوله عنها الراوى ، والتى تظهر وتختفى فى بعض الأزمنة والأمكنة .

يقول الراوى فى أول سطر فى هذه الرواية : " إسمى " جوزيه " هكذا ننطقه فى الفلبين كما فى الإنجليزية ، وفى العربية يصبح كما فى الإسبانية " خوسية " ، أما هنا فى الكويت فاسمى هو " عيسى " كيف ولماذا ؟ أنا لا أعرف، فأنا لم اختر اسمى ، كل ما أعرفه هو أن العالم قد اتفق على أن يختلف عليه ! ".

بعد هذه البداية التى تشعر القارئ على نحو ما بما هو مقدم عليه تبدأ الرواية مع تفتح وعى " الراوى " حين كان فى العاشرة من عمره فى بلدة " فالنشويللا " فى الفلبين، وكان قد بدأ يعرف عن حياته وحياة أسرته فى تلك البلدة كل ما يمكن أن يعرفه طفل زكى فى العاشرة كانت لأمه عبارة ترددها دائماً هى " كل شئ بسبب ولسبب " وحين كان يفكر وهو فى هذه السن ، وما بعدها فى سبب كل المتاعب والمشاكل التى تعانيها أسرته، فقد كان يجد أنه سبب وحيد هو الفقر، فالفقر هو الذى دفع خالته " آيدا " فى الماضى حين بلغت السابعة عشرة من عمرها أن تعمل راقصة فى حانة كى تنفق على الأسرة، إلى أن وجدت نفسها ذات يوم قد أصبح لديها طفلة اسمها " ميرلا " لا تعرف لها أبا، ولم يكن الأمر غريبا، فظاهرة الأطفال الذين لا آباء لهم مألوفة فى فالنشويللا ، وفى كثير من البلاد التى يتردد عليها السواح من كل أنحاء الدنيا ، وربما كان الغريب هو تمرد خالته " آيدا " على العمل، وفى تلك الأيام حاء الدور على أمه (وكان ذلك قبل أن تصبح أمه) لتسافر إلى الكويت لتعمل هناك عند إحدى العائلات الغنية لتقوم بدورها فى إعالة الأسرة، ولتعود بعد أعوام وعلى ظهرها ذلك الطفل (الذى يكتب الآن هذه الرواية) ولكن الطفل هذه المرة لم يكن مجهول الأب مثل " ميرلا " ابنة خالته، كان يحمل وعداً من أبيه الذى هو الابن الوحيد للعائلة الفنية التى كانت أمه تعمل عندها خادمة، وعدا يتحقق كل يوم من خلال النقود التى كان يرسلها لزوجته من أجل الإنفاق على ابنه ووعدا آخر مؤجلا بأنه سيعمل كل ما يلزم فى وقت لاحق ليعيد ابنه إلى بلده " الكويت " ليعيش فيه مواطناً كريما حاصلا على كل حقوقه !! .

وهكذا كانت هذه التقنية التى التزمت بها هذه الرواية بعرض الأحداث من خلال الضمير الأول ، تسمح للقارئ أن يعيش مع بطلها المسمى " جوزية " أو عيسى فى مكان واحد هو " فالنسويللا " كان يتعرف على شتى ملامحه يوما بعد يوم ، وأزمنة ماضية تخترق الحاضر وتتدفق عبر الحكايات التى ترويها الأسرة عن أرض " مندوزا" الذى هو جده لأمه وكل ما عرف عن قسوته وغرابة أطواره، وعبر الحكايات التى ترويها أمه " جوزافين " عن مكان آخر اسمه " الكويت " هو كما تقول أمه الوطن المأمول الذى سوف يعود إليه ذات يوم، وعن الأسرة التى كانت أمه تعمل خادمة عندها، والسيدة الكبيرة غنيمة التى هى وفق حكايات الوعد الأبوى جدته، وبناتها " نورية " وعواطف و " هند " عماته،

وعن المكانة المتميزة التى كان يتمتع بها أبوه فى الأسرة، ليس فقط لأنه الولد الوحيد فى الأسرة وسط ثلاثة بنات ، بل لأنه أصبح بالرغم من صغر سنه بمثابة رجل البيت بعد وفاة أيه، ولأنه كان يكتب فى الصحف، ويعارض الحكومة، ويؤلف رواية مثل الروايات التى كانت تقرأها " جوزافين " وهى تدرس فى الفلبين، وقبل أن تضطرها ظروف العائلة إلى أن تعمل خادمة فى الكويت، وكيف كان أبوه يعاملها معاملة خاصة، فيسمح لها بأن تحضر إلى حجرة مكتبه بعد أن ينام أفراد الأسرة لتتحدث معه حول ما يكتب أو يقرأ، وكيف تطور الأمر إلى فكرة أن يتزوجها زواجا عرفيا فى الخفاء، وحتى لا تقع فى الإثم الذى وقعت فيه أختها " آيدا " ولم يكن معقولاً أن ترفض مثل هذا الزواج الذى سجله فى ورقة شهد عليها صديقاه " غسان " و " وليد " ، اللذين كانا يترددان عليه فى البيت، ويشاركانه فى رحلات الصيد، ووعد بأن يخبر أمه بهذا الزواج فى وقت لاحق ، حدثت المشكلة فقط عندما ظهرت عليها أعراض الحمل، السيدة الكبيرة لاحظت الأمر، واتهمت السائق الذى كان يعمل عند العائلة بأنه المتسبب فى الحمل، وكادت أن تعصف بها وبه، ولكن ابنها " راشد " والذى هو أبوه تقدم من أمه وقال لها : أنا المسئول عن هذا الحمل!! صرخت فيه غير مصدقة : أخواتك يا أنانى يا حقير من سيتزوجهن بعد فعلتك هذه ؟! خذ هذه السافلة وكتب المجانين التى أفسدت عقلك ، وأخرج من هذا البيت !!

كم مرة ترددت هذه الحكاية ضمن حكايات الأسرة عن الماضى وأمام أى جزء منها كانت " جوزافين " تلمح على وجه طفلها ما يفيد حيرته أو عدم قدرته على الفهم ؟ وهل كانت تنتظر أن يصبح طفلها قادراً على أن يقرأ رسائل أبيه والتى كانت تحكى هذا الجزء من القصة إليها ؟! فى وقت سابق إليها، والتى كان يكتبها بالإنجليزية لعلها تكون أكثر قدرة على النفاذ إلى عقل طفله وإزالة حيرته ! ماذا كانت تقول الرسالة التى دفعت بها إلى ابنه ليقرأها لأول مرة ؟ " كنت على يقين من أن عيسى بعد ولادته هو من سيلين قلب والدتى الغاضبة، كانت أنوار البيت مضاءة بالكامل فى مشهد لا يحدث إلا فى المناسبات الخاصة ، توجهت نحو السلم، وإذا بوالدتى عند الدرجة الأخيرة فى الأعلى، واجهتنى ، ملامحها غاضبة صارمة، ولكنها تحولت إلى الهدوء ، تحن، ترق مع كل خطوة أخطوها إلى الأعلى ، هل ترقرت الدموع فى عينيها لرؤية الصغير حملته بين ذراعيها فى حين بقيت واقفا فى آخر السلم ، أرقب ملامحها وهى تحدق فى وجه الصغير حابسة شهقات البكاء، جلست إلى أريكة فى الأسفل، قربته أمى إلى صدرها ثم بكت كما لم أرها تبكى من قبل ، ذهبت إلى حيث تجلس على الأريكة واضعاً كفى على ركبتيها أحصرها بشوق، فما الذى حدث حين سمعت صوت جرس الباب ؟! أتت الخادمة بعد ثوان: سيدتى أربع نساء فى الخارج يسألن عنك .

رفعت أمى الصغير إلى وكأنه قنبلة توشك أن تنفجر وهى تردد فى هلع .. – الخاطبات – الخاطبات ...

ومن دون أن تلتفت الي أشارت بسبابتها إلى الباب الخلفى المفضى إلى المرآب ..

خذ ابنك واخرج من هنا !!

ثم قالت مشدده على كلماتها : إخرج الآن ثم أشارت إلى الصغير ..

وإياك أن تحضر هذا الشئ إلى هنا ...

علمت فيما بعد أن أمى كانت على موعد لاستقبال أهل خطيب "عواطف " أختى..!

جوزافين الأمر أكبر مما كنت أتصور، لن أستمر فى لعبة لست أعراف قوانينها، أنهيت إجراءات الطلاق قبل كتابة هذه الرسالة بساعات أما بخصوص عيسى فأعدك بأنى لن أتخلى عنه الخ .. "

هل أصبحت الأمور أكثر وضوحاً فى عقل الصبى بعد أن أصبح قادرا على أن يقرأ بنفسه رسالة والدة ؟

ربما أن أمه كانت تفكر بسؤال كهذا ؟

ولكن ما حدث هو أن الصبى سألها وهو يبكى

- لماذا تكرهنى جدتى ..... ماما ؟

فترد الأم وهى تجف دموعه .

- حتى الأنبياء كما يقول " اليسوع " غرباء بين أهلهم .

سألها بدهشة ..

- وهل أنا نبى ؟
- الله وحده يعلم .
- وإذا كبرت وذهبت إلى بلاد أبى نبيا ألا يصلبوننى هناك ؟!

ضمته إلى صدرها ضاحكة

- لا تخف .... لن يصلبوك وأنت ابن راشد!!

أظن أنا كاتب هذا المقال، " وبعض الظن إثم " أن الكاتب الافتراضى لهذه الرواية المسمى "جوزية " أو الكاتب الفعلى المسمى " سعود السنعوسى " عندما وصل فى كتابته إلى هذا المشهد كانت شخصية " عيسى " بطل هذه الرواية قد تماهت مع شخصية "عيسى " النبى فى خارجها، فى عقله وليس هناك ما يمنع من أن يكون ذلك جزءاً من تصميمه المبكر لهذه الرواية فأحداث الرواية التى تجئ بعد ذلك تبدو وكأنها الإعداد الذى لا بد منه لنبى بشرى ممن يبحثون عن إجابات لهذا النوع من الأسئلة .

- لماذا تكرهنى جدتى ماما ؟

تتراجع أمام أحداث الحاضر فى وطن الأم

كان " جوزيه " أو عيسى قد بلغ الثانية عشرة من عمره حين أصبح قادراً على أن يقرأ آخر رسالة أرسلها أبوه لأمه وكانت قد وصلتها وهو فى الثالثة من عمره بعدها انقطعت رسائل أبيه وأمواله، وكان ذلك مرتبطا بما تناقلته الأخبار عن اندلاع حرب الخليج الثانية فى بلد أبيه الكويت ، وحتى بعد أن انتهت هذه الحرب فإن كل محاولات الأم لكى تعرف شيئا عن أخبار الأب قد باءت بالفشل، ولم يكن أمامها سوى أن تعود للعمل خادمة فى البحرين مرة ، ثم للعمل عند أسرة غنية فى مانيلا مرة أخرى، لمساعدة الأسرة، وكان زواجها من رجل أكبر منها بعشر سنوات فى تلك الأثناء " يعمل فى البحر ثمانية شهور فى العام ثم يعود ليبقى معها لنهاية العام" يبدو وكأنه نوع آخر من البحث عن عمل، ولكن ذلك كله لم يجعلها تفقد ثقتها فى أن " راشد " زوجها الكويتى والد " عيسى " سوف يظهر ذات يوم ، ولم يجعلها تتوقف عن زرع ذلك الحلم فى عقل " عيسى " ابنها الذى كان يواصل النمو، والذى بدأ يضجر من ثقة أمه فى وعود أبيه، وإن كانت قسوة الحياة فى أ رض جده مندوزاً هى التى كانت تعيده للتشبث بثقة أمه فى وعود أبيه، وكأن ضجره من هذه الثقة لم يكن سوى نوع من استعجال تحقق هذه الوعود، كانت أمه ذاتها هى التى تقول له : كنت أخاف اليوم الذى قد يتحقق فيه وعد أبيك بعودتك إلى الكويت لأن ذلك يعنى أن تبتعد عنى، ومع أنى كنت أخشى ذلك اليوم فقد كنت أتمناه لأنه يعنى أن تعيش حياة رغدة وطيبة ، وربما كان اختيارى أن أعمل مرة فى البحرين ومرة فى مانيلا هو أننى أريد أن أتدرب على الحياة وأنت بعيد عنى، متى بدأ " جوزية " هو الآخر يتدرب للانفصال عن أمه ، وعن أرض جده مندوزا ، وعن مندوزا نفسه ذلك الجد العجوز الغامض المجنون، المتسبب بغرابة أطواره فى لعنة الفقر التى تهيمن على الأسرة والذى يظهر فى وقت لاحق من هذه الرواية أن أحد أسباب جنونه أنه كان واحدا من هؤلاء الأطفال الذين لا يعرفون لهم أبا، كان ذلك بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره، بعد أن وقع فى حبه الأول الصعب مع "ميرلا" ابنة خالته التى كانت تكبره بأربعة أعوام، والتى ورثت تمرد أمها وجمال أبيها الأوربى المجهول، لم يكن حبه "لميرلا" يتجاوز أحلامه التى لا يجرؤ على اليوم بما يدور فيها لأحد، وقد وجد هذا الحب المقموع من ناحيته والآمن من ناحيتها هى التى ورثت عن أمها خوفا ممزوجا بالاحتقار لكل الرجال فرصة للتعبير عن نفسه عبر تلك الرحلات التى كانت تقود فيها "جوزيه" إلى الكهوف المخيفة فى قلب الجبال الصخرية، التى كان يلجأ إليها ثوار الفلبين ، وهم يعدون خططهم لمحاربة المحتل الأسبانى بقيادة المناضل العظيم " خوسيه ريزال " كانت الجغرافيا بما فيها من جمال هى التى تحتضن التاريخ بما فيه من بطولات وكانت ميرلا هى المعلم الذى يشرح " لجوزيه " ، ما لم يكن يعلم عن أبطال بلاده ، فوق السلالم المعلقة فى قلب الكهوف التى يعبر فوقها الزائرون للوصول الى فتحات الجبل ، جاءت أول فرصة " لجوزيه " ليقترب من " ميرلا " بشكل كاد يفضح حبه المكتوم لها، فتعاجله بضربه على رأسه بالمصباح الكهربائى الذى تحمله فى يدها ليفيق مما يفكر فيه، ثم تواصل حديثها وكأن شيئا لم يحدث عن ضرورة البقاء عند فتحه الجبل لأن السماء سوف تمطر مطرا شديدا يقول لها مندهشا ، وقد تجاهل ضربه رأسه، ولكن السماء صافية لا سحب فيه ، فتعيد عليه عبارتها المكررة : أنت لا تفهم شيئا ثم تضيف : أنظر إلى حركة الطيور فى الفضاء القريب، والى أسراب النمل التى بدأت تتحرك فوق الصخور، وحين هطلت الأمطار غزيرة بعد ذلك ، وحين أتاح له ذلك فرصة أن يبقى مدة أطول بجوار " ميرلا " بحيث تلتصق ساقه بساقها ، فيشعر بنشوة تنسيه الكدمة التى حدثت فى رأسه، فقد بدأ يفهم معنى ما كانت تقوله " ميرلا " من أن للطبيعة لغة وأن لها روحاً كذلك !! .

هل كانت مثل هذه الرحلات مع " ميرلا " إلى مناطق من بلاده للتعرف عليها وعلى تاريخها هى التدريب الذى لا بد منه قبل أن يقوم برحلته إلى بلاد أبيه التى يقولون عنها أنها أكثر غنى ورخاء، تحقيقا لمقولة "خوسيه ريزال " الزعيم الوطنى لبلاده ، والتى كانت "ميرلا" تحدثه

دائما عنه . " إن الذى لا يستطيع النظر وراءه إلى المكان الذى جاء منه سوف لن يصل أبداً إلى وجهته .

البحث عن عمل هو بحث عن الذات

كان القرار الذى وصل إليه " جوزيه " أخيراً هو أنه لا بد أن يترك الدراسة بحثا عن عمل ، كانت " ميرلا " هى الأخرى قد تركت البيت فى إحدى نوبات تمردها على الأسرة مع صديقتها " ماريا " دون أن يعرف أحد إلى أين ذهبا أو متى يعودان ؟

كان العمل المتاح أن يقضى نهاره فى مدينة " مانيلا " أمام عربة موز ليحصل على عمولة بيع بالكاد تسد الرمق، ما ساعده على الاستمرار فى هذا العمل هو أن بائعاً آخر للموز اسمه " تشانغ " وهو بوذى من أصول صينية، أقدم منه فى المنطقة وفى المهنة، كان قد قبل طلبه للسكنى معه فى غرفته الصغيرة مقابل أجر زهيد وحين سأله عن السبب فى قبوله لمشاركته السكنى رغم ضيق المكان ابتسم قائلا : أحتاج إلى صوت اسمعه غير صوتى!، وفى هذه الحجرة الصغيرة التى كانت تقع أمام معبد " سينغ غوان " البوذى فقد كان وجود المعبد فى الجوار يحرض " جوزيه " ليسأل تشانغ عن " بوذا " ولأنه لم يكن سؤالاً واحدا، ولا مرة واحدة، فقد وجد نفسه يقدم لجوزيه كل ما كان عنده من كتب عن " بوذا " تعاليمه، حياته تلاميذه ، جلوسه تحت شجرة التين بوضعية اللوتس ، قصة التنوير، وبدأ ما يعرفه جوزيه عن " بوذا " يدفعه إلى أن يتحدث " لتشانغ عن المسيح، عند اكتشاف التشابه بين " بوذ ا " و " المسيح " فى ظروف الميلاد والنشأة والحياة والأتباع ، يتساءل جوزيه بعد أو أول زيارة يقوم بها لمعبد " سينغ غوان ".

هل أخون أحدهما إذا ما اتبعت تعاليم الآخر ؟

كلاهما يدعو للمحبة والسلام والتسامح والخير والمعاملة الحسنة ! كان فى أول طريق البحث عن الحقيقة بين مختلف الأديان ! .

لم يكن قد مضى وقت طويل على حياتهما المشتركة فى الحجرة الصغيرة، حين اكتشف " تشانغ " ما يمتلكه " جوزيه " من أصابع سحرية حين كان يقوم بتدليك قومى، " تشانغ " الذى كان يعانى من الوقوف طويلاً أمام عربة الموز .

قال له ذات صباح :

- وظيفة بيع الموز لا تناسبك يا مجنون !

وحين لم يحر " جوزيه " جوابا تابع " تشانغ " .

- سأذهب بك غدا إلى المركز الصينى للعلاج الطبيعى والتدليك فى شارع قريب .

- ولكنى لا أجيد الصينية !

- أصابعك تجيدها .

تابع تشانغ : يتطلب الأمر تدريبا لتحمل شهادة تجيز ممارسة المهنة ، المهم فى المسألة أن يمتلك المتدرب مثل أنا ملك السحرية ! يقول " جوزيه " وقعت عقدا مع المركز الصينى فور اجتيازى التدريب براتب شهرى ، الأهم من الراتب وهو ما لم يرد ذكره فى العقد" البقشيش الذى يدفعه الزبون حين يكون راضيا عن الخدمة، تعلم " جوزيه " أعظم الدروس فى حياته، أن العمل هو الذى جعله يكتشف أنه يمتلك فى أصابع ثروة لم يكن يحلم يوماً أن يمسك بها ولكنه قبل ستة

أشهر من استمراره فى هذا العمل فوجئ باستغناء المركز عن خدماته ، كانت تلك هى الطريقة التى يحتال بها المركز على قانون فى الفلبين يجبر المؤسسات على دفع مكافأة نهاية خدمة للموظف الذى ينتظم فى العمل أكثر من ستة أشهر ، ولهذا فقد أصبح أهم الدروس عنده ليس فقط درس العمل وحده بل أيضا درس النظم الذى يدور حولها العمل ! ولكن حتى الأمور السيئة قد لا تكون دائماً بالغة السوء ، فقد ساعده واحد من الكبار الذين كانوا يترددون على المركز للعلاج للحصول على عمل على مركب يخدم السواح القادمين إلى جزيرة " بوراكاى" واحدة من أهم المنتجعات السياحية فى الفلبين، وعلى ظهر هذا المركب وفى هذه الجزيرة يلتقى "جوزيه " بمجموعة من الشباب الكويتيين الذين يقتربون فى أعمارهم من عمره ، تكون الخدمات التى يقدمها لهم، والموسيقى التى يعزفونها ، واللغة الإنجليزية التى يستخدمها الجميع، والكلمات العربية القليلة التى تعلمها من أمه وفى مقدمتها " السلام عليكم " هى الوسائط الأولى لقيام علاقة بينه وبين هذه المجموعة من الشباب من بلد أبيه الذى حلم يوما بأن تصبح وطنا له، والذين سوف يسميهم فيما بعد " مجانين بوراكاى " ويهديهم أول رواية يكتبها فى حياته فهل كان ظهور هؤلاء المجانين فى مثل هذا التوقيت الذى بدأ فيه يكاد ينسى تماما وعد أبيع، ويتصرف كما لو أنه لم يعد فى حياته مكان لهذا الوعد ، يشبه ما يقول عنه البعض من أنه نوع من مكر التاريخ ، الذى يمهد لكل مرحلة بالأحداث التى يجب أن تسبقها لتناسب الأحداث التى تلحق بها، فبعد أن تعرف بهؤلاء الشباب عاد بما حصل عليه من نقود لم يكن يحلم بها، لأمه ليفاجأ بها وقد تلقت اتصالاً تليفونيا من " غسان " واحدا من أصدقاء والده القدامى يقول فيه :

" أتصور أن الوقت قد حان لعودة عيسى إلى بلد أبيه لو كان يرغب فى ذلك، كانت هذه رغبة راشد منذ خمسة عشر عاما أوصيته بأمى إن أصابنى مكروه، وأوصانى هو أن أتدبر أمور عيسى إذا ما حدث له مكروه، ثم أضاف بعد لحظة صمت " قبل أسبوع تسلمت عائلة "الطاروف " رفاة راشد من إحدى المقابر الجماعية فى جنوب العراق ". أليست لديه رغبة فى العودة إلى الكويت ؟

وهكذا كما فى كل الحكايات الكبيرة والصغيرة .

كان من الضرورى لمن يحلم بالوصول إلى بلد أبيه الغنى الذى لا يشقى فيه بالعمل، والذى يتعرف فيه على دين جديد ألا يصل إلى شئ من ذلك كله إلا بعد أن يكون قد عرف معنى الوطن ومعنى العمل ومعنى أكثر من دين فى وطن أمه .

الفردوس يوارب أبوابه أمام "عيسي"

حين توقفت السيارة التى كانت تحمل عيسي أمام بيت جدته غنيمه في بلاد أبيه لم يقو على مغادرتها ، تيقظت فجأة كل المخاوف القديمة التى كانت تسكن دماغه عن طرد أبيه وأمه من بيت جدته! كان كل ما عرفه من "غسان" أنه قام بما قام به وفاء بعهد تبادله مع راشد، واعتمادا على أن مرور الزمن ووجود "عيسي" الذى أصبح في سن الشباب، تنفيذا لوصية راشد سوف يحسم الأمر لصالحه، وأن الأسرة قد وافقت على استقباله في هذا الموعد، نصحه غسان الذى أذهله مع حدث لعيسي من خوف مفاجئ أن يتقوى في مواجهة الموقف، حين خطأ خطواته الأولى في بيت جدته أذهلته فخامة الصالون واتساعه، التفاصيل الكثيرة والمبهرة التى تنتشر في كل مكان بعناية، لا تسمح له بالتركيز على أى منها ليعرف ماذا تكون ومم تتكون؟!

أخيرا التأم شمل العائلة في استقباله ، ليس متأكدا كيف حدث ذلك؟ ، شخصيات حقيقية تخرج من فلم قديم بالأبيض والأسود ، هى الآن أمامه بالألوان الطبيعية، جدته غنيمة، هى وحدها التى عرفها لوحده، غسان هو الذى كان يعرفه بعماته "عواطف" و"نوريه" و "هند" وتلك الأخيرة التى تقاربه في سنه "خوله" أخته لأبيه من إيمان التى تزوجها بعد أن طلق أمه، بعضهم رحب به بالإنجليزية التى يتحدث بها "خوله" كان ترحيبها الأعظم بما ظهر على وجهها من سعادة بوجوده بينهم، الجميع كانوا يتكلمون مع غسان ومع بعضهم بلغتهم العربية التى لا يفهمها، استمر الحديث بينهم، ولم يكن يقطعه سوى ما يقدم له من واجبات الضيافة، ثم عودتهم إلى الأحاديث الطويلة التى كان من الواضح أنها تدور بشأنه، وكان لديه من الوقت ما جعله يترجم ما يراه على وجوه المتحدثين بلغة لا يفهمها من انفعالات إلى صورة كائنات تجسد هذه الانفعالات فكان يرى الجدة في صورة "نسر منغولى"، أما العمة نورية فلقد كانت تبدو "كسمكة قرش"، أم العمة عواطف فكانت في وداعتها تبدو "كدلفين طيب" يبتسم في سذاجه، في حين بقي "الجرذ" الذى هو أنا أخرس من دون أن يفهم شيئا مما يدور حوله سوى نظرات حانية من عصفورة وديعة أسمها خوله" ، في منزل غسان الذى عادا إليه بعد انتهاء الزيارة التى لم يعرف شيئا بعد عن حقيقة ما جرى فيها من أحاديث بدأ غسان يقدم له الترجمة الحرفية لجلسة المفاوضات التى تمت في منزل الجدة:

"العمة عواطف" سعيدة جدا ومرحبة، تقول: هذا ولدنا والله لا يرضي أن نتنكر له، "نورية" رفضت رفضا قاطعا وجودى بينهم محذرة مما قد يحدث لو علم زوجها "فيصل" بهذا الأمر أصبح أضحوكة لأخوات فيصل وزوجات أخوته، العمة "هند" الناشطة المعروفة في مجال حقوق الإنسان في حيرة من أمرها كانت تقول مصداقيتى أمام الناس على المحك، هل أضحى بمبادئي حين أقف إلى جوار سمعة العائلة أم أتجاهل سمعة العائلة لأدافع عن حق أخى في الانتماء إليها، أم تحافظ على الاثنين: مبادئها وسمعة العائلة بالموافقة على الحل الذى كانت تقدمه "نوريه" عند الاضطرار، وهو إلغاء لقب "الطاروق" من أوراقي الثبوتيه والإبقاء على الأسم الثلاثي، والبحث عن مكان يأوينى بعيدا عن العائلة، أو تسوية الأمر ماليا وإرسال إلى بلاد أمى من جديد".

كان هذا هو ما نقله "غسان" إلى عيسي عن زيارته الأولى لمنزل جدته، وكان لابد أن ينتظر في بيت غسان ليعرف النتيجة النهائية لمفاوضات العائلة ، وجاءت النتيجة على

التليفون هذه المرة من خوله أخته الصغرى، التى كانت سعادتها لا توصف بوجوده يقول "عيسي":

"أخبرتنى أنهم قاموا بتجهيز غرفة لى في ملحق المنزل ثم أضافت: ستجد كل ما تحتاجه في الغرفه، ثم أخذت تعدد لى كل ما تضمنته الغرفة... قاطعتها: هذا كثير جدا ياخوله!

صمتت

قلت:

- شكرا على كل ما تفعلينه من أجلي عادت لصمتها ثم قالت.
- هل أنت متأكد أنك سعيد؟
- جدا هذا أكثر مما كنت أحلم به!

لقد حاولت بقدر ما أستطيع أن يكون بقاؤك معنا بشكل أفضل ولكن لننتظر ربما تغير ماما غنيمة رأيها لتعيش معنا داخل البيت".

فهمت أن قبول جدتي لى كان منقوصا، فملحق البيت ليس البيت ذاته، تقبلت الأمر برحابة صدر ليس لشئ سوى أن غرفتي في ملحق المنزل كانت ذات الديوانية التى يجتمع فيها أبى بأصحابه.

- الو عيسي هل أنت على الخط.
- نعم إنى أسمعك
- هناك أمور أخرى... أود أن تعرفها قبل مجيئك وهكذا عرفت: "أنى يجب ألا أتحدث إلى الخدم خصوصا الطباخ والسائق بحقيقة أمرى، لأن لبيت جدتى جيرانا وفي كل بيت طباخ أو سائق وهؤلاء لا يؤتمنون على أسرار البيوت كلام كثير قالته خوله خرجت منه بفكرة واحده هي أننى سأعيش في بيت جدنى أو في محلق بينها سرا لا يجب أن يكشف للآخرين وأن هذا مؤقتاً إلى أن نجد حلاً لهذه المشكلة ؟!

هل أصبح ما كان يراه لغزا في رسالة أبيه أكثر وضوحا في بيت العائلة؟!

وهل تغيرت الأمور بعد كل هذه السنين كما كان يراهن غسان؟

لماذا لا ننتظر كما تقول خوله؟

لماذا لا يصبر قليلا مع جدته "غنيمة" فى بلد أبيه كما صبر كثيرا مع جده "مندوزا" في بلد أمه!

فى بيت العائلة: كثير من الحوائط كثير من الثقوب:

اكتشف عيسي بعد أن انتقل إلى حجرته في الملحق الخاص ببيت العائلة أن ما تحتويه هذه الحجرة من أشياء تخصه تفوق في صورتها الحقيقة ما كان يتخيله لها حين كانت خوله تعدها له في التليفون مع أنه كان يراها آنذاك فوق ما يحلم به، وربما لهذا لم يهتم كثيرا عندما اكتشف في وقت لاحق أن حجرته التى كانت في الماضي هى الديوانية التى يلتقي فيها أبوه

بأصدقائه، وهى التى سيقضى بها الآن كل وقته هى في الوقت ذاته الحجرة الملاصقة لحجرتى الطباخ والسائق، ثم اكتشف فى أوقات لاحقه أن هناك حوائط كثيرة لا تزال تفصل بينه وبين العائلة إلى جوار حوائط البيت، فهو يتناول طعامه في الوجبات الثلاثة وهو الذى لم يكن يحلم بمثله في بلده في الفلبين في المطبخ وليس مع العائلة، الأمر الذى كان يحتم عليه أن يتحادث مع الخدم وواحدة منهم فلبينيه، على خلاف ما أوصته خوله من أن يتجنب الحديث مع الخدم، على أن أحاديثه العابرة مع الخدم أوصلته إلى أن الخدم يعرفون عنه وعن تاريخه وعن العائلة أكثر بكثير مما كانت العائلة تخشى أن يعرفوا، "راجو" السائق هو الذى أخبر الجدة غنيمة أن عيسي يتحدث مع الخدم، الأمر الذى جعل العائلة تدرك أن بعض حوائطها مثقوبة، وقد كانت طريقتها لسد هذه الثقوب أن تسمح لعيسي بأن يجلس معهم على المائدة في حجرة الطعام وكانت هذه المحاولة، التى كانت فى جوهرها تعنى المحافظة على بقاء عيسي في نطاق أنه سر من أسرار العائلة تتطور إلي أن تصبح فى وقت لاحق طريقا لمدمجه في العائلة، فقد كان وجوده بينهم على مائدة الطعام هو الفرصة أمام جدته – وهى التى لا تراه ولا تتحدث إليه إلا نادرا بسبب غيابه عن عينيها، وبسبب أنه لا يعرف العربية، أن تسمع صوته وهو يتحدث مع خوله بالإنجليزية مرات كثيرة على المائدة فكان أن أجهشت في إحدى هذه المرات بالبكاء، وحين سألوها عن سبب بكائها أوضحت أن صوت عيسي حتى وهو يتكلم بالانجليزية هو صوت أبنها راشد، وكان وجود عيسي على مائدة العائلة هو فرصته أيضا لكي يلاحظ ما تعاني منه جدته من صعوبة الحركة سواء في المشي أو في الجلوس، فيدرك أنها تعانى من خشونة في الركبة، ويتذكر أن علاج مثل هذه الحالات بأصابعه السحرية كان مهنته التى تفوق فيها في المركز الصيني ، فيبادر بالقيام بتدليك ركبتي جدته غنيمه، الأمر الذى يوجد بينهما لغة مشتركة، وتصبح هى التى تناديه في المواعيد المقررة لتدليك ركبتيها، حيث تسلمها أصابعه السحرية إلى نوم عميق يجد هو بعده فرصة واسعة وبلا حدود ليتحدث مع خوله في الصالون، وهى التى كانت تتحدث إليه في حجرته في الملحق وهى واقفة عند الباب تنفيذا لتحذيرات جدتها التى تقول لها "لا ينفرد رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما" أصبح لديه الوقت ليسأل أخته عما يبيحه الإسلام ومالا يبيحه في علاقة الرجل بالمرأه؟ ولماذا أصابها الفزع مرة حين فوجئت بدخوله الصالون وكانت تجلس فيه متجردة من الحجاب الذى كان يغطى شعرها، فتقول له: بالنسبة للمحارم مثل الأب والأخ وهم كل من لا يحل للمرأه الزواج به لا يكون ارتداء الحجاب ضروريا!

يعيد السؤال: لماذا إذن كل هذا الفزع؟

تجيب : حتى لو كان والدنا حيا كان سيحتاج لبعض الوقت ليعتاد كونه أبالك!

يرد – هذا غير صحيح

تعقب – يقول "ماركيز": إن حب الأولاد ليس نابعا من كونهم أبناء، وإنما منشؤه صداقة التربية!

- من هو "ماركيز"؟
- أنت لا تفهم شيئا!

تقولها في براءة ودون أن تدرى ماذا يمكن أن تصنع به تلك الكلمة ؟! كان يمكن أن يتقبل مثل هذه الكلمة من "ميرلا" التى تكبره بأربعة أعوام أما هذه الأخت التى تصغره

بعامين، فكان أن بدأ بدوره يحدثها عن "خوسيه ريزال" بطل الفلبين ومحررها وحكيمها العظيم، كمحاولة لرد الاعتبار وفوجئ هذه المرة بأن خوله هى التي بدأت تطارده بالأسئلة عن كل ما يتعلق "بخوسيه ريزال" وبشعبه، وما يسوده من ثقافات وعلاقات، مما كان يؤدى إلى اتساع الثقوب في الحوائط، ولكن إذا كانت التعالب الصغيرة تنجح أحيانا في توسيع الثقوب، فإن حراس العائلة الأشداء كانوا يعمدون دائما إلى التأكد من تعلية الحيطان وسد ثقوبها في الأوقات التى يمكن من خلالها القفز عليها أو التسلل من ثقوبها، وبدأ ذلك يحدث حين جاء شهر رمضان الذى تكثر فيه زيارات الأقارب ودعوتهم على موائد الإفطار والسحور، وما بينهما من وجبات وسهرات، فكانت عماته وأزواجهن وأبنائهن، وكان بعض هؤلاء الأبناء يحمل اسم عيسى نفسه الذى هو الجد للجميع، فكانت في تلك الأثناء تصدر له التعليمات واضحة هذه المره بألا يغادر حجرته طوال هذه الزيارات، حتى لا يراه أطفال الأسرة، ولا أباؤهم ، فهو بالنسبة لهؤلاء لا يزال سرا، ولم يجدوا حتى الآن طريقا آمنا لإعلان ذلك السر وهكذا كان شهر رمضان يحمل إليه إلى جوار معاناة التدرب على الصوم، معاناة أشد هى الشعور بأنه لم يعد بعد جزءا من هذه العائلة، وأنه لا يبصر طريقا واضحا لكي يصبح مثل هؤلاء الأولاد الذين يروحون ويجيئون في بيت العائلة في كل الأوقات، وفي كل الأماكن! وصلت المحنة إلى ذروتها في يوم العيد، ففي هذا اليوم ولمدة ثلاثة أيام تالية امتلأ فيه بيت العائلة بأطفال العائلة، يتلقون الهدايا والنقود من الجدة والآباء والأمهات، لم يسمح له بالخروج، ولا بالمشاركة، تلقي أول تهنئة بالعيد بالتليفون من غسان، ثم من خوله، ثم انتظروا لحظة في نهاية اليوم الثالث خلافها البيت تماما من الأطفال، جاءت بعدها "خوله" لتقول له: ألن تجئ لتهنئ ماما غنيمه بالعيد؟!

يقول: بعد أن رحل الجميع! تم قال بصوت مخنوق" لماذا تعاملونني بهذه الطريقة تقول خوله وهي تنظر إلى الأرض

- ليس الأمر سهلا عيسي!

راحت تشرح له ما كان يعجز الجميع عن شرحه، الذى يحدث هنا موجود في بلاد كثيرة، هناك دائما عائلات ثرية ترفض مصاهرة من دونها من العائلات حتى في الفلبين!

- نعم يرفضون مصاهرتهم ، ولكنهم لا يزدرونهم!

كانت مثل هذه الحوارات مع خوله تنجح أحيانا في امتصاص غضبه لبعض الوقت إلى أن جاءت اللحظة التى أصبحت فيها خوله هى الغاضبة، ولقسوة المفارقة كانت خولة أيضا هى التى تنقل إلى عيسي أخبار هذه اللحظة قالت لعيسي:

" أم جابر صاحبة البيت المجاور لبيتنا اتصلت تهنئ ماما غنيمه بالعيد وتطلب منها الخادم الفلبيني الذى يعمل لديكم ، سيكون لدينا ضيوف على الغداء، والطباخ مشغول، أحتاج لمن يقدم الشاى والقهوة والعصير" ، " أم جابر" معروفة لدى البيوت المجاورة بفضولها ونقل الأخبار في مجالس النساء ، حاولت جدتي أن تتملص من طلبها، رشحت "بابو" بدلا منى قالت لا الفلبيني شكله مهذب، إصرار أم جابر بعث الشك في نفسي جدتى، ورغم ذلك أرسلت خوله لتخبرني بضرورة أن أذهب ،خوله هذه المرة كانت هي الغاضبة قالت بوضوح: مهما فعلت جدتى إياك أن تذهب!

هل كنت في حاجة إلى تأكيد "خوله لى بضرورة الرفض؟! كان ما أفكر فيه يتجاوز كثيرا ما تقوله "خوله" عن ضرورة الرفض، لما تطلبه أم جابر وما أصبحت جدتى توافق عليه، كنت أفكر في أنه قد حان الوقت لكي يكون قرار مستقبلي بيدى وليس بيد أحد حتى ولو كان العائلة التى أنتمى إليها، ربما وحتى هذه اللحظة لم يكن القرار بالوضوح الكافي لكي أقوله لخولة في كلمات، خوله هى التى جاءت في اليوم التالي وقبل أن أقول لها كلمة واحدة مما كنت قد وصلت إليه لتخبرني بأن "أم جابر" لم تهدأ بعد اعتذار جدتى عن تلبية طلبها، بادرت بالاتصال "بإيمان" أمها لتسألها عما إذا كانت تعرف شيئا عن الفلبيني الذى يعمل في بيت الجدة غنيمه؟ ولم ترحها أمى بإجابة قاطعة، ولكنها في الوقت ذاته جاءت إلى جدتي لتقول لها أنه سيكون من الصعب عليها وعلى أسرة زوجها أن تبقي "خوله" في بيت جدتها لو ظل هذا الفلبيني في نفس البيت، هكذا لم يعد أمام القرار الذى كان عيسي قد وصل إليه وقبل أن تقول "خولة" شيئا مما قالته إلا أن يعلنه أمامها.

- لا تقلقي سوف أقطع لسان أم جابر سوف أترك بيت العائلة.
- إلى الفلبين؟
- إلى الكويت... فأنا أمتلك ما يثبت حقي في البقاء في الكويت كمواطن!

أخطر مفاجأة تلقاها عيسي في حياته هو أن جدته بعد أن علمت بقراره راحت تحتضنه بقوة، وكأنها تكافئه على هذا القرار ، وهى التى لم تكن تسمح له سوى بالاقتراب من ركبتها وساقيها، وربما أدرك لأول مرة أن جدته "النسر المنغولى" كانت خائفة من شئ ما، وعندما بدأ لها أن شبح هذا الشئ لن يعود لكى يهددها فقد ذهب عنها خوفها، ولو إلى حين فتفجر هذا الحب، وراحت تعده بمائتي دينار أخرى كل شهر فوق ما كان مخصصا له، وبنصيبها في معاش أن وربما يكون قد وجد أخيرا الإجابة على سؤاله القديم

- لماذا تكرهنى جدتى يا ماما؟

وهو يغادر بيت العائلة.

- حين ترك "جوزيه" بيت العائلة، كان معه من المال الذى رتبته له العائله، ما يضمن له حياة رغدة، دون حاجة إلى أى عمل، ولكنه كان بكل ما مر به من خبرات، يدرك المعنى العميق للقول المأثور أنه "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" كما كانت نصيحة أخته خولة لا تزال تتردد في أذنيه " بأن العمل وحده هو ما سيحقق له الاندماج في المجتمع"، ولم يتردد في قبول أول فرصة عمل أتيحت له مع أنها لم تكن من النوع الذى يحقق الذات، بل كانت مجرد العمل في محل لبيع الأطعمة الجاهزة.

- كان حصوله على هذا العمل بمساعدة من صديق اسمه إبراهيم سلام تعرف عليه في المسجد القريب من بيت العائلة، الذى كان يتردد عليه للصلاة ولمزيد من التعرف على دين العائلة التى ينتمي إليها وإليه، وكان هذا الصديق ويا للمفارقه فلبيني مسلم يعمل مترجما في السفارة الفلبينية في الكويت ، والذى كان وجوده في الكويت، وتعلمه في معهدها الديني، وعمله في السفارة كمترجم في إطار ما تقدمه إحدى الجمعيات الخيرية الإسلامية من مساعدة لمن يحتاجها من المسلمين في شتى البلاد الإسلامية!

كان إنسانا رائعا في عمل الخير، وفي التعاون مع صديق من بلده تعرف عليه في المسجد، يريد أن يتعرف على أمور دينه، ولكن "جوزيه" وجد نفسه يتردد كثيرا أمام دعوة صديقه له للانضمام للجمعية الدعوية التى كان صديقه عضوا بها، أكان مبعث هذا التردد شعوره بأنه لم يتعرف بعد على الإسلام بالدرجة التى تجعله يمكن أن يتحول إلى داعيه له؟ أم لأن عمته "هند" التى كانت قد عرفت بأمر صلته بإبراهيم سلام عن طريق خوله قد أرسلت تحذره من الانضمام إلى أى من الجمعيات المغلقة التى يموج بها مجتمع الكويت أم لأن طريقة تفكير إبراهيم سلام في بعض الأمور وبعضها يتعلق بالدين لم تكن تريحه؟!

- المدهش حقا أن يلتقي "جوزيه" في العمارة التى يسكن فيها بواحد من أصدقائه القدامي الذين كان يسميهم "مجانين بوراكاى" ليتأكد له أن الصدفة لا تزال تلعب دورها في الحياة كما تلعبها في الروايات ، يقوده "مشعل" – الذى كان يسكن وحده في شقة في الدور الثامن من العمارة ليحصل فيها على مزيد من الحرية بعيدا عن صرامة العائلة – إلى بقية المجانين ، كانوا كما عرفهم من قبل تركي ومهدى وجابر وعبد الله، كأن هذا تماما ما كان ينقصه ليتحقق له ذلك الشئ الذى كانت تقوله خوله " الاندماج في المجتمع، هم أنفسهم كانوا يمثلون خلطة مدهشة من هذا المجتمع، عرف فيما بعد أن بعضهم مثل تركي ومشعل وجابر ينتمون إلى عائلات في قمة المجتمع، وأن الآخرين من عائلات ليست بنفس المكانة، مشعل وتركي يتحدثان الانجليزية بطلاقه، عبد الله ومهدى يخاطبانى كما كانت تخاطب ماما غنيمة بابو وراجو، جنونهم الرائع ينيب كل هذه الفوارق، لم يسأله واحد منهم من تكون؟ أو من أى عائلة أنت؟ كان يكفيهم أننى ذلك الشخص الذى التقوه من سنين في جزيرة "بوراكاى" وزعم لهم أنه كويتى مثلهم، ولم يأخذوا كلامه على محمل الجد وقتها والآن وقد وجدوه بينهم فالأمر لا يستحق التمحيص إنه يشاركهم في الصلاة وفي لعبة الورق التى كان وجوده بينهم يكمل عددهم لكي يلعبوها، وحين جاء موسم الانتخابات، وبدأ

انشغالهم بالمشاركة فيها، لم يكن لديهم مانعا أن يأخذوه معهم ليشارك في هذا المهرجان الرائع، الذى كان ضمن فقراته تلك الندوه. التى تقيمها الناشطة السياسية والمرشحة في الانتخابات هند الطاروف.

كانت الردود الشجاعة لعمته هند على أسئلة الحضور في الندوة والتى أحدثت ما يشبه الصدمة لبعض هؤلاء الحضور هى التى جعلته ينسي حذره فيعلن أمام أصدقائه من "مجانين بوركاى" أن هذه المرشحة الرائعة هى عمته هند الطاروف! وكانت الصدمة آنذاك أكثر ما تكون من نصيب "خالد" الذى يظهر في الوقت ذاته أنه ابن "أم خالد" التى كانت بفضلوها العظيم، لا تنتظر شيئا أكثر تأكيد مثل هذه المعلومة من أبنها، لتواصل دورها في تشغيل آلة الغمز واللمز الجباره في مجتمع النساء المخملي، لتكون النتيجة الحتمية أمام نورية ألا تجد حلا لمشكلة العائلة سوى أن تستأصل جذور المشكلة بطرد جوزيه من عمله، بحيث تصبح إمكانية بقائه في البلد مرهونة بنفاذ ما معه من نقود كانت تمنحها له العائلة.

"كان كل شئ بسبب ولسبب" كما كانت تقول "جوزافين" أمه في أزمنة ماضيه، وحين أتخذ في ضوء كل الأسباب التى كانت في وضوح الشمس قراره النهائى بضرورة العودة إلى وطن أمه الفقير، كانت الأجواء التى تحيط به تشبه من بعض الوجوه أجواء اليأس والهزيمة التى تحيط بالنهاية في رواية "كزانتزاكس" العظيمة "المسيح يصلب "ثانية"، ولكنه حين وصل إلى المطار في آخر يوم له في وطن أبيه الغني، بصحبة صديقه إبراهيم سلام، فوجئ بأنه كان في وداعة في المطار صديق أبيه القديم غسان وأخته خوله، وعمته هند وكان ما فعله وما قاله هؤلاء الذين جاءوا لوداعه هو ما فتح نوافذ من الأمل جعل نهاية هذه الرواية تختلف قليلا عن النهاية الخزينة لرواية "كزنتزاكس"!